تريستان و ايزولد لجوتفريد فون شتراسبورج

بقلم
الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد

تريستان وايزولد « Tristan und Isold » ، قصة شعرية أنشأها الشاعر الألمانى الفذ جوتفريد فون شتراسبورج Gottfried Von Strassburg حول عام ١٢١٠ ، ولم ينشئ غيرها على قدر ما نعرف ، لا من النثر ولا من الشعر ، بل إنه ترك درته هذه ناقصة ، لم يتمها ، ولا بد أن يد المنون اختطفته ، بعد أن سطرت يده هو البيت رقم ١٩٥٤٨ بقليل . ولكنه صنع للإنسانية تحفة من أعظم تحفها ، لا تقتصر عظمتها على إفادة القارئ المتأمل وامتاعه ، بل تتجاوز ذلك إلى إلهام الأديب الخلاق والشاعر المبدع فى كل زمان ومكان ، وهى تحفة إنسانية بكل ما فى هذه الكلمة الدسمة من معان ، فلم تكن مادة « تريستان وايزولد » ملكاً لجوتفريد ، ولا ملكاً لمن سبقه إلى معالجتها ، ولن تكون ملكاً لمن تبعه ويتبعه إلى معالجتها . إنها ملك الإنسان .

عصر جوتفريد

وينبغى علينا فى محاولتنا فهم جوتفريد فون شتراسبورج وعمله أن نضع أنفسنا فى زمانه ومكانه حتى لا نعامل الأحياء معاملة الموتى أو الجوامد . جوتفريد فون شتراسبورج واحد من عمالقة قلائل حملوا عصراً يعرف فى الأدب الألمانى بعصر الازدهار الأول أو بعصر الكلاسيكية الأولى أو بعصر الفروسية أو بالعصر البلاطى أو بعصر الملوك الاشتوفيين . وهذه الأسماء كلها صحيحة ، وقد تعددت لأنها تذهب فى تحديدها العصر أكثر من مذهب ، وتبصر به فى أكثر من ناحية : يمتد هذا العصر من الربع الأخير للقرن الثانى عشر إلى مشارف القرن الرابع عشر ، أى أنه يعد نحو ثلاثة عشر عقداً أو نحو قرن وربع قرن من الزمان . أما العمالقة الآخرون الذين نهضوا بأدب هذا العصر مع جوتفريد فون شتراسبورج فهم :

— هرتمن فون أوى (بين عام ١١٦٨ و ١٢١٥ على وجه الاحتمال) صاحب القصص الشعرية الجميلة : ايريك — جريجوريوس — هاينريش المسكين — ايفاين .

— فولفرم فون اشينباخ (بين عام ١١٧٠ وعام ١٢٢٠ تقريباً) صاحب القصص الشعرية الفريدة : بارتسيفال — فيلاهلم — تيتوريل .

— هاينريش فون فيلديكه (بين منتصف القرن الثانى عشر ومطلع القرن الثالث عشر (صاحب الانياده

— فالتر فون در فوجلفايده (بين عام ١١٦٨ وعام ١٢٢٨) صاحب الأغانى والقصائد التى لم يطاولها من بعده أحد حتى جاء جوته.

هؤلاء الأدباء كانوا من غير رجال الدين. فما أعظم التغير! من قبل كان الأدب حرفة رجال الدين يكلفون به ويحتكرونه احتكاراً ويشكلونه بقوالبهم (اذكر جامع الأناجيل لتاسيان و وهلياند أو حياة المسيح المخلص وكتاب الأناجيل وغير ذلك كثير) لأنهم هم الذين أخذوا بنصيب من العلم. أما الآن فحملة الأدب «دنيويون» منخرطون فى سلك الفروسية أو مؤمنون بثقافة الفروسية، مقيمون فى بلاط الأمراء أو متصلون بهم ومتخذون أمزجتهم وميولهم. كان أهل أوروبا فى القرون القليلة الماضية قد امتصوا مجموعة من الحضارات أتتهم على الأغلب عنوة، امتصوا الفكر المسيحى وما أتى معه من طرف من ثقافة الإغريق والرومان، وامتصوا الكثير من الثقافة العربية من أسبانيا تارة، ومن جنوب فرنسا (البروفانس) المتأثرة بحضارة الأندلس تارة أخرى، وأخذوا عن العرب والمسلمين الكثير عبر إيطاليا وأثناء التحامات الحروب الصليبية. كانت الحياة فى ألمانيا من قبل التأثير العربى الإسلامى — سواء من المشرق العربى أو من المغرب العربى — تعرف بلاط الأمير وتعرف طبقة الفرسان، ولكن الصورة التى تشكل بها بلاط الأمير والقالب الذى ظهر فيه الفارس فى ذلك العصر المزدهر، يحملان على الجزم بتأثير أنماط الحضارة العربية. وقد حدثت تطورات سياسية مختلفة فى الديار الألمانية شجعت على هذا التحول الذى شهده المجتمع والذى تهمنا منه ناحية حلول «الدنويين» أو أهل الدنيا محل أهل الدين أو رجال الدين فى حمل رسالة الأدب، وناحية ازدياد قوة ورفاهية الأمراء واهتمامهم بالآداب. ويمكننا أن نلخص هذه التطورات السياسية أو الأحداث السياسية هنا ونستعين بملخصها على التعمق نوعاً ما فى فهم أصول هذه التطورات وعلى تصور المكان الذى اتصلت فيه.

كانت حقبة الملوك الزاليين قد انتهت بظهور صراع شديد بين القيصر الألمانى الذى كان يمد سلطانه إلى شمال إيطاليا وبين البابا الذى لم يكن يرضى أن يترك السياسة والحكم فى الدنيا لأهل الدنيا (قارن هاينريش الرابع وما حدث بينه وبين البابا). وأصبح البابا طرفاً فى انتخاب القيصر الألمانى، وكان القيصر الألمانى فى حقيقته أميراً من بين الأمراء، صاحب إمارة من بين أصحاب الإمارات، ولا يقوى إلا بالجيش والفرسان والاعتماد على إخوانه. وهكذا تمكن البابا من دفع الأمراء الألمان على اختيار قيصر ضعيف هو كونراد الثالث (١١٣٨ — ١١٥٢) حتى يخلو له الجو. وقد تم للبابا ما أراد، وتعثر كونراد فى ألمانيا وتعثر أكثر فى إيطاليا. هكذا بدأ الأشتوفيون بداية فاشلة. وكونراد الثالث هذا، القيصر الأشتوفى الأول (كلمة اشتوفى صفة من «شتوفن» اسم قلعة فى منطقة شفاين بجنوب غرب ألمانيا) هو الذى اشترك مع لويس السابع ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية التى منيت بالفشل. وإذا كانت سياسة البابا قد نجحت مع كونراد الثالث، فقد فشلت مع خلفه «فريدريش الأول» بارباروسا، الذى كان قيصراً قوياً محنكاً مستنداً على عصبة من أولى القوة والبأس. فأعاد سلطان ألمانيا على شمال إيطاليا، ودعم قبضته على ألمانيا نفسها، وحارب البابا الكسندر الثالث فلم يتغلب عليه لتحالفه مع الفرنسيين، ولكنه مهد للسياسة المستقبلة وهى ضم جنوب إيطاليا إليه عن طريق زواج ابنه مع الأميرة كونستانسه، لكى يضع البابا بين شقى الرحى. وخلف فريدريش بارباروسا ابنه هاينريش السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) الذى كان أقوى القياصرة الألمان نفوذاً وأوسعهم ملكاً. وهنا ينبغى أن نتوقف وقفة قصيرة ونشير إلى فشل الحرب الصليبية بعد أن قاد المسلمين صلاح الدين الأيوبى الذى

حول الحروب الصليبية إلى نهايتها خاصة بعد انتصاره فى حطين عام ١١٨٧ . ونعود الآن إلى هاينريش السادس لنجده يموت مبكراً ولنجد موته يبدأ عهداً جديداً من الفوضى فى أوروبا وألمانيا . عاد البابا إلى التدخل فى انتخاب القيصر الألمانى ، وعاد الانقسام بين الأمراء الألمان . تولى أوتو الرابع (١١٩٨ — ١٢١٥) وهو من حزب البابا ، ونصب حزب الاشتوفيين فيليب ابن بارباروسا . وقامت حروب أهلية انتهت بموت فيليب عام ١٢٠٨ . فلما استتب الأمر لأوتو حارب البابا . فخلعه الأمراء ونصبوا فريدريش الثانى (١٢١٥ — ١٢٥٠) الذى حمل التاج فى روما عام ١٢٢٠ واتجه إلى الشرق فى محاولة صليبية جديدة باءت بالفشل . ثم حدث له ما حدث لأسلافه ، إذ اختلف مع البابا، فأخرجه البابا من المسيحية وأعلن خلعه ، فهاجم هو البابا واضطر البابا إلى الفرار إلى فرنسا . ونصب الأمراء الألمان جماعة من الملوك ضد فريدريش الثانى . وشاعت الفوضى والحروب الأهلية . ومات فريدريش عام ١٢٥٠ فماتت الإمبراطورية الألمانية .

يظهرنا هذا العرض الموجز على أسباب ظهور الاتجاه الدنيوى فى الأدب خاصة منذ عهد بارباروسا ، وعلى أسباب قوة الفرسان الذين كان العصر كله يتحرك بمشيئتهم لاتصال النزاع ، وعلى أسباب استقلال الأمراء كل فى إمارته سيد وفى بلاطه ملك . هذا هو الزمان الذى نشأت فيه الكلاسيكية الأولى وهذا هو المكان الذى احتواه . وفى هذا الزمان والمكان عاش جوتفريد فون شتراسبورج وأنتج .

من هو جوتفريد فون شتراسبورج ؟

هذا سؤال لا نعرف له جواباً شافياً . وواضح من الاسم أنه من مدينة شتراسبورج الالزاسية . هذا هو كل ما فى الأمر . كذلك وصلتنا قصة شعرية ضخمة اسمها تريستان وايزولد لم يتمها صاحبها ، ولم يذكر اسمه ، وما كان يمكن أن يذكر اسمه إلا فى آخرها على عادة العصر . ولكن جماعة من الأدباء تناولت القصة وحاولت اكمالها وذكرت أن اسم المؤلف هو جوتفريد وأنه من شتراسبورج فنسبت القصة إلى اسمه ، نسبة صحيحة لا نكاد نشك فيها ، ولكننا لا نعرف عن الرجل شيئاً . وقد سعى الباحثون فى القرن الماضى إلى استجلاء هذا المكنون وظنوا أن جوتفريد كان كاتب مدينة شتراسبورج . ولكن البحث الحديث كذبهم . ومما يذكر عن جوتفريد ، استقاء من قصته ، أنه لم يكن من رجال الدين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه كان يتقن اللغة الفرنسية اتقاناً كبيراً ، وأنه كان من عامة الشعب ولم يكن فارساً أو نحو ذلك فلم يذكره معاصروه ومن أدركوه بما يفيد غير ذلك . لم يسمه أحد « السيد جوتفريد » بل سموه « جوتفريد » مما يقطع بأنه كان من عامة الناس .

رفع جوتفريد فون شتراسبورج يده عن قصته « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ أى فى الوقت الذى أتم فيه معاصره العظيم فولفرم فون اشينباخ درته « بارتسيفال » . ولهذا يمكننا دون التورط فى تواريخ بعينها ، أن نقول إن جوتفريد أدرك القيصر فريدريش بارباروسا وعصره المجيد وأدرك القيصر هاينريش السادس وأدرك أوتو الرابع وغريمه فيليب ، وأنه على الأرجح لم يشهد تنصيب القيصر فريدريش الثانى (١٢١٥) . وهذا يعنى أنه عاش جزءاً كبيراً من حياته فى ظل القياصرة المظفرين ، وفى ظل الاستقرار . وهذا يعنى أيضاً أنه عايش مرحلة الحروب الصليبية الحاسمة وأنه تأثر بما كان فيها من تيارات .

أحداث « تريستان وايزولد »

يشمل النص الذى بين يدينا من قصة تريستان وايزولد ١٩٥٤٨ بيتاً تنتظمها ٢٤٥ صفحة مزدوجة (أى ذات نهرين) هى طبعة العلامة فريدريش رانكه .

(اعتمدنا على الطبعة التاسعة منها التى ظهرت فى عام ١٩٦٥ فى زيوريخ وبرلين) .

ويمكن أن نقسم الأحداث إلى ثلاثة فصول كبيرة : نشأة تريستان ورحلته الأولى إلى أيرلنده — رحلة تريستان إلى أيرلندة للمرة الثانية وهيامه بايزولد — نفى تريستان ونهايته . وهذا هو التقسيم الذى أخذ به هلموت دى بور (المجلد الثانى من تاريخ الأدب الألمانى ، نشر هلموت دى بور وريشارد نيفالد ، ميونيخ ١٩٦٠ ، ص ١٣٠ وما بعدها) . وهناك تقسيم آخر أكثر تفصيلا اصطنعه العلامة الفرنسى جوزيف بدييه فى رواية « تريستان وايزولده » هو :

١ — طفولة تريستان .
٢ — مورولت الأيرلندى .
٣ — الحسناء ذات الشعر الذهبى .
٤ — الشراب السحرى .
٥ — برانجين والوعول .
٦ — شجرة الصنوبر الكبيرة .
٧ — القزم فرونسن .
٨ — قفزة من الكنيسة .
٩ — غابة مورروا .
١٠ — الناسك أوجرين .
١١ — المخاضة العجيبة .
١٢ — حكم بالسلاح .
١٣ — دعاء البلبل .
١٤ — الجرس العجيب .
١٥ — ايزولد ذات الأيادى البيضاء .
١٦ — قاهردين .
١٧ — ديناس دى ليدان .
١٨ — تريستان مجنوناً .
١٩ — الموت .

وقد قسم الناسخ الذى كتب مخطوط هامبورج الورق فى عام ١٧٢٢ أو الذى كتب الأصل الذى نسخ هذا عنه ، القصة إلى ٢٦ فصلا حسب الأحداث لا الفكرة كما فعل بدييه فيما بعد .

تبدأ القصة بحديث عن الأمير « ريفالين » أمير بارمينيرلاند وحربه المظفرة ضد واليه « مورجن » وتنتقل منه إلى وصفه رحلة قام بها إلى الملك الشهير « مارك » ، ملك كورنيفال وإنجلتره . ولقد أحسن الملك مارك استقبال ضيفه ريفالين وأقام حفلا عظيما تبارى فيه الفرسان ما شاء لهم التبارى ، وبرز فيه ريفالين وتفوق على الآخرين بما أوتى من مهارة وسرعة وقوة وبراعة فأعجبت به النساء كل الاعجاب ، وكان إعجاب النساء بالفارس أسمى تقدير لفروسيته فى ذلك العصر : وكانت الحسناء بلنشفلور أخت الملك مارك أكثر النساء إعجاباً بريفالين ، بل إنها أحبته وأوسعت له فى قلبها مكاناً ، وما لبث أن أحبها هو أيضاً . ويصف جوتفريد هذا الحب وصفاً رائعاً :

ريفالين ذو الفكر واللب
حدث له ما بيَّن
أن الروح المُحبة
تشبه الطائر الطليق تماماً
الذى ينطلق بالحرية التى لديه
إلى الغصن المدهون بالصمغ (= المخيط) فيحط عليه
وعندما يحس بالصمغ ويتملص منه
ويهم بالطيران
تزداد ساقاه التصاقاً .
فيحرك ريشه وينتفض
فلا يلمس من الفرع
جزءاً مهما رق
إلا ويزيد قيده ويحكم وثاقه .
فيضرب بكل ما أوتى من قوة
من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا
حتى ينتهى فى النهاية
إلى هزيمة ذاته بمقاومته

وإلى الرقود لصيقاً على الغصن

. . . .

هذا ما حدث لريفالين » .

(الأبيات من ٨٤١ إلى ٨٥٨ ثم ٨٧١) وجوتفريد فون شتراسبورج يتوسع دائماً فى وصف الحب ، وتحليله ، وله فيه نظرية سنعرض لها فى جزء خاص . وخرج ريفالين ، على ما كان متبعاً فى ذلك العصر ، لمنازلة أعداء الملك مارك . فأبلى فى ذلك بلاء حسناً ولكنه أصيب بجرح شديد قربه من الموت . فذهبت إليه بلنشفلور واعتنت به حتى برأ . فلما استعاد قوته أخذها إلى دياره زوجة له . ولكن حياة ريفالين امتلأت بعد ذلك بالمعارك كما كانت مملئة بها من قبل ، وانتهى أمره فيها إلى إصابة أودت بحياته . وكانت زوجته بلنشفلور حاملا فوضعت ابناً هو تريستان وماتت عقب الوضع وتركت الصغير يتيم الأبوين .

وشب تريستان فى رعاية عامل ريفالين « روال » كأنه من أبنائه ، حتى بلغ الرابعة عشر فغامر حتى نزل بلاطاً هو بلاط الملك ماركه أو مارك ، وهو خاله . ولكنه لم يكن يعلم بأمر القرابة وكذلك الملك لم يكن يدرى شيئاً عنها . وتقدم تريستان فى الفروسية حتى رسم فارساً وأظهر من الشجاعة والقوة ما لم يستطعه الآخرون . وكان أهم عمل قدر عليه هو منازلة العملاق الهائل مورولت الذى كان يثير الرعب فى البلاد ويفرض على الملك مارك أداء أتاوة أو جزية كان هذا يؤدىها صاغراً . ولم تكن منازلة هذا العملاق فرداً لفرد أمراً هيناً ، بل أمراً بالغ الخطورة . فقد تلقى تريستان من سيفه المسموم ضربة أحدثت به جرحاً لم يعرف أحد سبيلا لمداواته .

وعلم تريستان أن العملاق مورولت له أخت هى ملكة أيرلنده وأنها متضلعة من الطبابة وأنها وحدها تعرف مرهماً إذا وضع شىء منه على الجرح برأ والتأم . فتنكر فى زى اللاعب تنتاريس وقصد ديار الملكة الأيرلندية واستمال الملكة ببراعته الموسيقية فعالجته حتى شفى وعينته مدرساً للموسيقى لابنتها الحسناء إيزولد . وجاء اليوم الذى قرر أن يعود فيه إلى بلاده ، فخرج سليما معافى منتصراً سعيداً ، وسلك طريق الإياب . ولقيه خاله أعظم لقاء ، وسعد لعودته أعظم السعادة ، وعينه وريثاً له مما أثار حقد الحاقدين ممن يعتقدون أنهم أوتوا بسطة فى الجسم والمال وأنهم أولى بالعرش منه . فلا عجب إذن أن يكلف الملك مارك ولى عهده تريستان بأكبر وأصعب مهمة ألا وهى مهمة خطبة ايزولد لتكون زوجة له — أى للملك مارك — وهى ابنة العدو القديم . والمهمة صعبة لأسباب كثيرة ، فقد أقام تريستان فى بلاط ملكة أيرلنده متنكراً ، وظل مدة طويلة يدعى أنه لا يزيد على أن يكون العازف تنتاريس ، وقد أحب تريستان إيزولد وأحبته هى ولم يزد الحب عن مجرد الحب شيئاً ولعل إيزولد منت نفسها أن يعود تريستان إليها يوماً ليخطبها لنفسه ، وقد طلب تريستان عون الملكة فعاونته وشفته من جرح كان لا محالة مهلكه وكان هو قاتل أخيها العملاق مورولت . فكيف يعود الآن إلى الملكة ؟ وبأى وجه يرجع الآن إلى إيزولد ؟ لا بد له من الإتيان بعمل هائل ، بعمل خارق للعادة يكون فيه خير وسعد لأيرلنده وملكتها حتى يحق له أن يسلك السبيل إليها .

وهكذا جاءت الرحلة الأيرلندية الثانية لتريستان . نزل تريستان سراً ودخل فى صراع أليم مع التنانين الفظيعة التى كانت تفسد على أهل أيرلنده أمرهم كله أو جله وكانت تجعلهم يعيشون فى رعب دائم ، حتى رصد البلاط جائزة رفيعة لمن يخلص البلاد من شر هذه التنانين . ولم تكن هذه الجائزة الرفيعة سوى يد الحسناء إيزولد . من قتل التنانين وخلص البلاد من شرها حق له أن ينال إيزولد ذات الشعر الذهبى . وهكذا غلب تريستان التنانين . فلما تم له ذلك وقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فوجدته النسوة وحملنه إلى البلاط . وهناك عرفت الملكة أنه هو قاتل مورولت ، عرفت ذلك من سيفه ومن أثر القتلة الباقى فيه . واغتاظت

الملكة ، ولكن تريستان استطاع ، مستعيناً ببرنجين الخادم المخلصة ، أن يهدئ من روعها ويصور لها الأمر على نحو آخر أقرب إلى صالحه . كذلك تعرض تريستان فى الوقت نفسه إلى محنة أخرى ، إذ ادعى تروكسيس الجبان أنه هو الذى قهر التنانين . ولكن تريستان لم يعدم الحيلة ليكشف كذب الجبان وليؤكد قوته وانتصاره . وأعلن تريستان على الفور مهمته فطلب يد إيزولد الجميلة لخاله وسيده الملك مارك . ونجحت المهمة وبدأ الاستعداد للعودة إلى كورنيفال . وكانت إيزولد ما تزال تحمل فى قلبها كرهاً شديداً لتريستان قاتل خالها مورولت ، حل محل حبها الشديد له قديماً . ولكن الأمر لاح كأنه قد قضى ، فقد تقرر زواجها من الملك مارك وخرج تريستان من الموضوع . وأعدت الملكة الأم شراباً سحرياً ليشرب منه إيزولد ومارك . كان هذا الشراب السحرى يؤدى بشاربيه إلى التأجج حباً ، وإلى الارتباط برباطه إلى الأبد ولم يكن هناك شيء يخفف منه أو يوقف مفعوله .

وفى الطريق ظمئ تريستان وظمئت إيزولد فشرب تريستان وسقى إيزولد من الكأس التى وضعت الملكة الأم فيها مشروبها السحرى . وجاءت الخادم برنجين الوفية متأخرة ورأت ما حدث ففزعت أشد الفزع وأخذت الاناء وألقت به فى البحر . ولكن المقدر حدث فتحول كره إيزولد إلى حب عنيف ملتهب وامتلأ قلب تريستان بمثله . وتحدد بهذا مصير الاثنين : الحب الذى لا تقف أمامه عقبة . . . والحيلة النافذة التى تمهد لهذا الحب كل طريق . وتمتع الحبيبان بالحب الحرام طوال أيام الرحلة دون أن يفكر أحدهما فى الاثم الذى يتورطان فيه، فما كان يليق بتريستان أن يفعل ما فعل وقد كلفه خاله وسيده بالمهمة وائتمنه عليها ، وما كان يليق بايزولد أن ترتكب ما ترتكب وهى فى الطريق إلى من سيصبح زوجها . ولكن ما الحيلة والشراب السحرى يجرى فى دمائهما ويصب فيهما لهيباً لا يهدأ ؟

ولما بدت كورنيفال فى الأفق أفاقا إلى نفسهما ، وأحسا بإثمهما ، ولكنهما قررا مع الخادم الوفية برنجين أن يستمرا فى حبهما وأن يستعينا على أمرهما بالحيلة والخداع ، وتعاهد الثلاثة على الاخلاص حتى الموت بعضهم للبعض . ووصل الركب . واستقبله الملك أحسن استقبال . وأخذ الملك يستعد لعقد القران والثلاثة يقررون الخطط لخداعه . وفى ليلة عقد القران بدأ تنفيذ أول خطة إذ قاسمته الفراش « برنجين » دون أن يدرى ، وبهذا بقى سر الجريمة التى ارتكبها تريستان وإيزولد فى الطريق مكنوناً . وسرعان ما فكر تريستان وإيزولد فى التخلص من برنجين بالقتل لأنها هى الوحيدة التى تعلم السر والتى يخشى أن تبوح به . ولكن خطة القتل لم تنجح . وتعترض القصة حكاية لا تمس صلبها هى حكاية خطف الفارس « جاندين » لإيزولد ، وكثيراً ما تعترض القصص فى العصور الوسطى فصول اعتراضية من هذا النوع .

وسارت حياة تريستان وإيزولد فى بلاط الملك مارك على الحب والخديعة . ظل الاثنان على علاقتهما ، يتبادلان الحب ، ويطيعان ما يتأجج فى دمهما ، وكلما لاحظ أحدهم شيئاً وحذر الملك ، عرف الاثنان كيف يكيدان ويمكران ويخرجان من الموقف . وظل الملك مارك يؤمن بطهر إيزولد ولا يشك فيها أدنى شك ، وظل يثق فى تريستان ولا يرتاب فيه أقل ريبة . ولكن سرعان ما تغير الوضع ، وكثر الكلام وتردد الملك مارك بين التصديق والتكذيب ، وأراد أن يلزم جانب العدل فلا يحكم على إيزولد إلا بعد تثبت . وهنا تبدأ سلسلة من المحاولات لكشف الحقيقة لا تصل إلى شيء لشدة مكر الحبيبين . وأول من وشى بالحبيبين هو تروكسيس الذى كان له دور مشين أثناء إقامة تريستان الثانية فى أيرلندة . من محاولات مارك مثلاً وقوفه متخفياً فى قلب أغصان شجرة ليفاجئ الحبيبين ، ولكنهما يلاحظان وجوده فيتحدثان بحديث يبعد عنهما الشبهة تماماً . كذلك هناك فصل مؤثر جرت فيه محاولة تحكيم الله باستعمال حديد

متأجج ، وفى هذه المحاولة أيضاً تمكنت إيزولد من إثبات براءتها كذباً . وينتهى الأمر بالملك مارك إلى نفى إيزولد وتريستان . فيذهبان إلى الغابة ويعيشان هناك فى كهف أجمل عيشة ، يطلقان لأنفسهما العنان ، وينطلقان فى الحب لا ينغص عليهما منغص ، ولا يقترب منهما عزول . ويكتشف مارك مخبأهما فى كهف الحب ، ويتصادف أن يجدهما راقدين أحدهما بجوار الآخر وبينهما سيف . وكانت تلك علامة على الطهر فى ذلك العصر (راجع النيبلونجنليد) فانخدع الملك مارك مرة أخرى ولام نفسه وعفى عن الاثنين وأعادهما إلى البلاط . وعاد الاثنان إلى البلاط ، ولم يكفا عن حبهما الأبدى . وذات يوم فاجأهما الملك مارك فى البستان متعانقين أوثق عناق ، فلم يعد به حاجة إلى دليل . ورأى الاثنان أن الملك مارك قد اكتشف العلاقة ، فقررا أن يبتعد أحدهما عن الآخر .

لم يعاقب الملك مارك إيزولد واتبع فى ذلك نصح أصدقائه ، وترك تريستان ينفى نفسه ويرحل بعيداً . فرحل إلى نورماندیا ، ولكن الحب لم يفارق قلبه ، بل ظل يتأجج به ويؤرقه ، وظل الحنين إلى إيزولد يملك عليه نفسه ، ولا يفارقه لحظة . وراح تريستان ينازل ويصارع ويقهر العتاه ويغلب الغاصبين حتى قربه أمير أروندل «قايدين» إليه ، وعرض عليه أن يتزوج من أخته واسمها إيزولد ذات الأيادى البيضاء أو إيزولد بيضاء اليدين .

وهنا تقف قصة جوتفريد فون اشتراسبورج .

ولكننا نعرف من المصادر المختلفة بقية القصة . يتزوج تريستان من إيزولد بيضاء اليدين ، ويستمر فى حياته المضطربة ، فيكثر من النزال والصراع ، ولا ينسى إيزولد الشقراء قط ، بل يدفعه حبه لها ، وحنينه إليها ، إلى التماس كل السبل للوصول إليها ويتم له ذلك . مرة يتنكر جاعلاً نفسه مريضاً مصاباً بالبرص يتلمس العلاج على يد إيزولد المتضلعة من الطبابة وينزل بلاط مارك فلا يعرفه أحد إلا إيزولد ، ومرة أخرى يتخفى فى هيئة مجنون ويلتقى بإيزولد .

وبينما تريستان يخوض المعارك من أجل الأمير قايدين ، يصيبه جرح مميت لا يستطيع أحد علاجه إلا إيزولد . فيرسل إليها من يبلغها الخبر ويرجوها الحضور لإنقاذه من موت محقق ، ويرجو الرسول أن يرفع على المركب وهو قادم علماً أبيض اللون إذا كانت إيزولد معه ، وأسود اللون إذا أتى بدونها ، حتى يعرف الخبر قبل أن ترسو السفينة . ولكن إيزولد بيضاء اليدين تغتاظ ويتحرك قلبها بغيرة سوداء مقيتة فتكذب على زوجها المحتضر وتدعى أن المركب مقبلة بعلم أسود فيلفظ أنفاسه الأخيرة . وتصل إيزولد الشقراء بعد فوات الأوان فترى تريستان جثة هامدة فترتمى عليها وتموت من فورها . ويصل خبر موت تريستان وإيزولد إلى الملك مارك ، ويعلم بقصة الشراب السحرى فيغفر للحبيبين ، وكيف لا يغفر لهما وقد علم أنهما كانا من تأثير الشراب السحرى كالريشة يحركها الريح فلا تستطيع رداً أو صداً . ويقرر أن يدفنهما فى مقبرتين متجاورتين ، فإذا بشجرة تخرج من قبر تريستان وتدخل فروعها فى قبر أيزولد ، وكلما قطعت الشجرة نمت ومدت فروعها إلى قبر الحبيبة ، فما كان للموت أن يفرق بين اثنين ربطهما الحب .

مادة تريستان وإيزولد

ليس جوتفريد فون شتراسبورج أول من عالج قصة تريستان وإيزولد من الألمان ، فقد سبقه إلى ذلك أيلهارت فون أوبرج بقصته « تريسترانت وإيزالده » . والمعتقد أن أيلهارت من قرية أوبرج قرب مدينة براونشفايج وأنه كان متصلا ببلاط هذه المدينة وربما كان متصلا أيضاً بالبلاط الإنجليزى بهنرى الأسد وزوجه الثانية ماتيلده (ابنة هنرى الثانى واليانور دى بواتو) . ويحتمل أن يكون إيلهارت قد فرغ من قصته « تريسترانت وإيزالده » حول عام ١١٨٠ . وقصته

هى أقدم رواية كاملة لمادة تريستان وإيزولد . وليس هناك شك فى أن أيلهارت استخدم مصدراً أو مصادر مختلفة ، ربما نفس المصدر الذى استخدمه بيرول الفرنسى فى قصته التى وصلتنا فى ٤٥٠٠ بيتاً . فى قصة أيلهارت نجد الفصول الرئيسية المختلفة التى فى قصة جوتفريد فون اشتراسبورج ونجد أيضاً بقية الأحداث التى لم يعش جوتفريد ليرويها بقلم . أيلهارت يحكى عن مولد تريستان (تريسترانت) ونشأته ووالديه ريفالين وبلنشفلور (أخت الملك مارك) . كذلك يحكى عن موت الوالدين وتيتم تريستان ودخوله فى ولاية آخر ويتتبعه عندما يكبر ويصارع مورولد (أو مورولت) ويصاب بجرح ثم يسافر إلى الملكة الأيرلندية طالباً الشفاء ، ويلتقى بالحسناء أيزالده (إيزولده) . ثم يعود به إلى خاله الملك مارك الذى يكلفه بالذهاب إلى أيرلنده وطلب يد إيزولده زوجة له . فيذهب إلى هناك ويصارع التنانين ، وينجح فى مهمته ويعود بايزولد . وفى الطريق يشرب معها خطأ من المشروب السحرى وتشتعل نار الحب بين الاثنين . وفى رحاب الملك مارك تتصل سلسلة من الخيانات ، تبدأ بوضع الخادم برنجين (أو برنجينه) فى فراشه بدلا من زوجه حتى لا يعلم بسوء ما حدث ، وتتطور إلى محاولة قتل الخادم الوفية ، ثم إلى تصنت الملك مارك على تريستان وإيزولد وراء شجرة ثم تجارب إثبات براءة البرئ ، ثم هرب الاثنين إلى الغابة والحياة فى كهف الحب . وتصل إلى نفى تريستان وبقاء إيزولد فى معية الملك مارك . ويذهب تريستان إلى الملك هافيلين ويعاونه بقوته ويصادق ابنه كهينيس ويلتقى بإيزولده بيضاء اليدين ، ويعود متخفياً إلى إيزولده الشقراء ويراها سراً . وتنتهى القصة بموته ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

الأحداث مشابهة تقريباً لما فى قصة جوتفريد .

والحقيقة أن مادة تريستان وإيزولد تشغل الباحثين منذ زمن طويل يريدون أن يعرفوا مصدرها وأن يتابعوا تطورها من يد ليد أو على الأصح من قلم إلى قلم . ولا شك فى أن مادة تريستان وإيزولد شأنها شأن المواد الأدبية القديمة ترجع فى أصلها الأول إلى وقائع تاريخية لا يستطيع البحث أن يكشف عنها دائماً . ثم تتحول هذه الوقائع التاريخية إلى أساطير بإضافة عنصر التهويل إليها وبتغيير أشخاصها وأماكنها أحياناً وبمزج الأشياء المتفرقة المتباعدة بعضها مع البعض الآخر ، كما أوضحنا فى مقالنا « النيبلونجنليد » الذى نشر فى هذه المجلة منذ بضعة أشهر . والمعتقد أن قصة تريستان وإيزولد تجمع على الأقل أسطورتين رئيسيتين . أولا أسطورة حب الإنسان لجنية . . وتبدأ هذه الأسطورة عادة باجتذاب الجنية للإنسان بقوة السحر — وهذا هو ما يجرى على تريستان إذ يتورط فى صراع العملاق مورولت ، وهو أخو الجنية الأم (الملكة) ، فيجرح جرحاً يقربه من الجنية ، لأنها هى الوحيدة التى تستطيع علاجه . ثم تحمله سفينة إلى حيث الجنية (الجنية — العملاق — الجرح — السفينة) — والمرحلة الثانية فى هذه الأسطورة هى عودة الإنسان إلى جماعة البشر وإلى حب امرأة من البشر . . وهذا هو ما يحدث لتريستان عندما يذهب إلى الملك هافيلين أو الأمير قايدين ويتزوج من إيزولد بيضاء اليدين ، وهى امرأة من البشر . والمرحلة الثالثة هى استعادة الجنية لحبيبها الإنسان والالتجاء واياه إلى ملكوت الجنيات وكثيراً ما تستعمل الجنية فى هذه المهمة السفينة — وفى قصة تريستان شىء من هذا مثلا : التجاء تريستان وايزولد إلى الغابة وإلى كهف الحب وكذلك منظر موته وحضور ايزولد الشقراء إليه . ولكن قصة تريستان وايزولده لا تنتهى هذه النهاية لأنها ممتزجة بأساطير أخرى كما قلنا ، نشير منها إلى الأسطورة الرئيسية الثانية وهى أسطورة الخيانة الزوجية وهى قديمة جداً فى الثقافة الكلتية ، وتسير فى خط واضح هو ائتمان رجل آخر على زوجته وخيانة هذا الأمانة .

وهناك عناصر من أساطير أخرى مثل عنصر فرار تريستان وهو عنصر معروف فى الأساطير الأرلندية وفيها ينبذ المجتمع الحبيب أو الأحباء فيلوذ أو يلوذون بالغابة . كذلك هناك عنصر سفر الشاب بحثاً عن حبيبة أو زوجة ، وعنصر قتال التنانين ومشروب الحب والعروس المدسوسة ، واغتيال الشريك (هنا برنجين) وعنصر التنكر ، كلها عناصر ربما أخذت من مصادر أيرلندية . وقد أظهر الباحثان زنجر وبورداخ أن شخصية ايزولد بيضاء اليدين مستقاة من مصادر عربية . وليست شخصية ايزولد بيضاء اليدين وهى العنصر العربى الوحيد فى القصة ، بل إن القصة مليئة بالعناصر العربية صغيرة وكبيرة ، فى الأحداث وفى الشخصيات وفى الأسلوب.

أما البحث وراء تاريخية تريستان وإيزولد فلم يؤد إلى نتائج حاسمة . تمكن البحث مثلا من الكشف عن أصل اسم تريستان والجزم بأنه اسم بكتى (نسبة إلى ملوك البكت الذين سكنوا أسكتلنده قبل الكلتيين) كثيراً ما استعمل فى القرون السابع والثامن والتاسع وكان أصلا « دريستان » ومنه تفرعت الأسماء تريستران وتريسترانت وتريستان . أما الملك مارك فقد كان له وجود حقيقى ، كان ملكاً مشهوراً فى كورنوول (كورنيفال) . وأما اسم إيزولد فأغلب الظن أنه اسم جرمانى من « ايسهلد » أو « اسفالدا » أو « ايشيلدا » ومن هذه الأصول تفرعت أسماء ايزولد المختلفة : ايزنت — ايزويت — ايزيه - ايزولت — ايزول — ايزيلت — ايزود — ايزوته .

ومكان قصة تريستان وايزولد هو أرض الكلتيين : أيرلنده (ايزولد ومورولد) وكورنيفال (مارك) وبريتانى (مسقط رأس تريستان وايزولد بيضاء اليدين)

تريستان وإيزولد عند الفرنسيين

لم ينشئ جوتفريد فون شتراسبورج ولا سلفه أيلهارت فون أوبرج مادة تريستان وايزولد التى بينا فى شىء من الإيجاز طرفاً من مكوناتها الأسطورية والتاريخية الكثيرة المعقدة . والمتخصصون فى تريستان وايزولد يفترضون وجود أصل قديم للقصص التى عرفت فى فرنسا ثم تناقلتها البيئات الأخرى ، ويطلقون على هذا الأصل الافتراضى اسم « أورتريستان » أى الصيغة الأولى لتريستان ويضعونه فى منتصف القرن الثانى عشر أو قبله بقليل أو بعده بقليل (بدييه — شوبرله) . هذه الصياغة الأولى أو هذه القصيدة البدائية أو النمط القديم أو الأورتريستان شىء لا طاقة لأحد على وصفه أو تحديده ، وكذلك لا طاقة لأحد على انكار وجوده . ويدفعنا الظن إلى القول بأنه كان أقصر من الصيغ المتأخرة وبأنه لم يكن يضم قصة والدى تريستان ريفالين وبلنشفلور وبأنه لم يستعمل عنصر الشراب السحرى الذى يشعل الحب أبداً ، وبأنه كان يقف عند هرب الحبيبين إلى كهف الحب بالغابة . ويرى رانكه أن الصياغة الأصلية لا بد كانت تشتمل على الأجزاء التالية :

(أ) صراع تريستان ومورولت ثم الرحلة الخطيرة إلى الجنية . ثم العودة إلى كورنيفال .

(ب) إيزولد هى زوجة مارك ، تقع فى هوى تريستان وتريد دفعه إلى الاتصال بها ، فيهرب الاثنان إلى الغابة برفقة كلب أمين . ولكن تريستان يظل مخلصاً لسيده فلا يمس إيزولد ، بل يدع السيف يفصل بين فراشيهما . ويصل مارك إليهما ويراهما والسيف بينهما .

(ج) ذات مرة يخوض تريستان وإيزولد عبر نهر فترتفع المياه إلى أعلى ساق إيزولد فتعنفه ، ويتطور الأمر إلى تورط تريستان فى خيانة سيده مارك .

(د) يلقى تريستان النصل فى الماء وهكذا يصل مارك إلى اكتشاف مكانهما . ثم يصيب

مارك تريستان بجرح مميت ، وترتمى إيزولد على صدره ويتعانقان فيخنقها ويموتان معاً .

من هذه الصياغة الأصلية بصورتها هذه أو بصورة شبيهة خرجت قصص توماس وبيرول وأيلهارت . وقصة الصياغة الأولى وكذلك قصص صياغات توماس وبيرول وأيلهارت مرتبطة بامرأة شهيرة هى « اليانور دى بواتو » وابنتها « ماتيلده » . ولدت اليانور دى بواتو (فى عام ١١٢٢) وسط بيئة مهتمة بالأدب والفن ومثله العليا من فرسانية وشهامة وحب وغزل . وكان جدها الدوق وليم التاسع دوق إقليم الأكيتين الفرنسى القريب من أسبانيا ، ولا يخفى أن إقليم بواتو الذى تنتسب إليه اليانور هو الإقليم الذى شهدت عاصمته « بواتييه » المعركة الشهيرة بين المسلمين والفرنجة والذى ظل على اتصال بالبيئة الثقافية العربية الإسلامية النشيطة فى أسبانيا . وجد اليانور هو أول شاعر بروفنسالى (تروبادور) نسمع به ، أما وليام العاشر والد اليانور فقد مات فى عام ١١٣٧ وترك اليانور فى سن الخامسة عشرة تصبح أغنى أميرة فى أوروبا وسيدة على أوسع ملك فيها . وفى العام نفسه تزوجت من الملك لويس السابع ملك فرنسا وكانت تعتقد أنها تتزوج ملكاً بمعنى الكلمة يعيش فى ابهة الملوك ويحفل بالأدب والفنون ، فاذا بها تكتشف أنه أشبه شىء بالراهب الزاهد الذى لا يعرف له شيئاً يهتم به إلا الحروب الصليبية . وقد اشترك لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) مع القيصر الألمانى كونراد الثالث والأمير فريدريش الذى سيصبح القيصر فريدريش بارباروسا ، وأخذ لويس السابع زوجه اليانور معه إلى الشرق فى هذه الحملة التى فشلت فشلا تاماً . ولم تحتمل اليانور البقاء مع لويس أكثر مما فعلت فطلقت منه فى عام ١١٥٢ وتزوجت هنرى « بلانتا جينيه » الذى سيصبح هنرى الثانى ملك إنجلترا وكان يصغرها بأكثر من عشر سنين . وكان هنرى يحب الأبهة ويشجع الفنون والآداب ؛

وهكذا أتيح لحفيدة الشاعر البروفنسالى الأول أن تعيد الحياة التى ألفتها فى البلاط فى بواتييه ، إلى بلاط وستمنستر ، واهتمت بالأدباء والشعراء وأشعلت جذوة مبدعة منذ عام ١١٥٤ خاصة عندما أصبحت « ملكة إنجلترا وسيدة أيرلنده ودوقة نورماندیا والأكيتين وجاسكونيا ، وكونتيسة بواتو وسانتونج وأنجوموا وليموزانوأوفيرنى وبوردو وآجن وأنجوومين وتورين » وابنتها ماتيلده (من هنرى الثانى) تزوجت من هنرى الأسد ، ويعتقد غالبية النقاد أنها كانت « سيدة » الشاعر أيلهارت فون أوبرج ، صاحب تريسرانت وايزالده وملهمته ، فقد مدحها ورفعها ما استطاع . فلما عزل القيصر بارباروسا هنرى الأسد من ساكسونيا ذهبت ماتيلده وزوجها إلى بلاط أبيها وكان لماتيلده هناك تأثير أدبى هام . أما الابنة الأخرى لاليانور وهى مارى (من لويس السابع) فقد تزوجت هنرى الأول أمير شامبانيا ، وكانت مارى هذه هى سيدة وملهمة كريستيان دى طروا شاعر فرنسا الشهير فى ذلك الحين الذى يهمنا هو ملاحظة الاتصال الوثيق بين البيئات الأوروبية المختلفة بعضها بالبعض وارتباطها فى شخصية اليانور وبناتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ملاحظة اتصال هذه البيئات بالشرق وقربها منه على الأقل (اليانور فى بواتييه وفى سوريا) . ويكاد العلماء يجمعون على أن الأورتريستان أو الصياغة الأولى لتريستان وايزولد نشأ فى بلاط اليانور فى بواتييه قبيل منتصف القرن الثانى عشر على يد شاعر مجهول لنا . وقد استند هذا الاجماع على شواهد منها أبيات للشاعر البروفنسالى برنارت دى فنتادور (حول عام ١١٥٠) التى تذكر « العاشق تريستان والعذاب الذى لقيه من ايزوت الشقراء » .

وإذا قلنا إن الأورتريستان نشأ فى بلاط بواتييه فمعنى ذلك أن واحداً أو كثيرين حملوا المادة من مهدها إلى هناك . وقد أظهر البحث منذ حوالى ثلاثين سنة أن عملية

النقل هذه تمت على يد قصاص يدعى بلبزيريكوس أو بلبرى أو بريرى ، وأنه فعل ذلك أيام أبى اليانور . وقد ورد ذكر بريرى هذا فى شعر توماس على أنه من العليمين بحكايات الملوك البريطانيين . وإذا كان هذا هو الاسم الوحيد الذى وصلنا ، فليس معنى هذا أن عملية النقل أنجزها هذا الرجل وحده ، فالمؤكد أن بلاط وليم العاشر كان يعج بالقصاصين العليمين بالأساطير الكلتية وغيرها . المهم أن مادة تريستان وايزولد وصلت إلى هذا البلاط وأنها اختلطت بعناصر من مصادر مختلفة منها المصدر العربى وصيغت على نحو يوافق المزاج الأوروبى فى صياغة قديمة أو فى صياغات قديمة .

وأول من أنشأ قصة حول مادة تريستان وايزولد هو شاعر فرنسا العظيم فى العصر الوسيط كريستيان (أو كرتيان) دى طروا . وقد ضاعت قصته ، ولكن إشاراته إليها فى قصصه الذى بقى ، وخاصة فى « كليجيه » يقطع بوجودها ، ويوحى بأنه استعمل صيغة أقدم . وكانت عادة الكتاب المتبعة فى العصر الوسيط عامة هى « الاقتباس » ، هى التماس المادة فى « مصدر » والتشرف بذكر هذا المصدر لا التحرج منه . وصيغة تريستان ، على قدر ما تجمع لدينا من أخبارها ، تتحدث عن الصراع بين الخال وابن أخته على حسناء ، ولكنها تتصرف فى أمر الحب المحرم الآثم وتجد له حلا من السحر .

وهناك قصة بيرول ، التى يسمونها أيضاً الصيغة العامة ، التى وصلتنا فى قطع مجموع أبياتها حوالى ٤٥٠٠ بيتاً ، تحكى جل الحكاية ، على ما يبدو لجمهور واسع ، ومن هنا تسميتها بالصيغة العامة . والعلاقة بين قصة بيرول وقصة أيلهارت غامضة. بعض النقاد يذهب إلى أن أيلهارت استمد مادة قصته من بيرول ، والبعض الآخر يرفض ذلك . والرأى الوسط هو أن الاثنين استعملا مصدراً ، تالياً على الأورتريستان فى الأغلب ، هو ما يسمى « بالقصة » . وقد أشرنا من قبل إلى علاقة أيلهارت باليانور التى ارتبط اسمها واسم بلاطها بتريستان أوثق ارتباط . وتنقسم قصة بيرول (نشأت بين عام ١١٧٠ و ١١٩٠ أو بعد ذلك أو قبل ذلك ؟) تنقسم إلى قسمين قسم أول (بيرول الأول) وقسم ثان (بيرول الثانى). فى القسم الأول يعالج بيرول الحوادث إلى حياة الحبيبين فى الغابة ، على نحو يشابه أيلهارت. أما القسم الثانى — بيرول ٢ — فيختلف عن أيلهارت أشد الاختلاف . فلعل بيرول استخدم مصدراً آخر غير « القصة » أو لعل كاتب « بيرول ٢ » شخص آخر

والقصة الأخرى التى يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى هى قصة توماس . والموجود منها حوالى ٣٠٠٠ بيت من الشعر تصل بالحكاية إلى ختامها . توماس البريطانى ألف قصته باللهجة الأنجلو نورمانية فى وقت مناظر لوقت بيرول تقريباً ، ولسنا نعرف هل كان توماس إنجليزياً أم كان من بلاد أخرى ؟ المهم أنه صاحب فضل كبير فى تطوير مادة تريستان وايزولد وتشكيلها بشكل رفيع متأثر بذوق البلاط ، الذوق الاليانورى ، مصطنعاً أسلوباً ليناً حسن الجرس ، مرهف الغنائية . نجد توماس مثلا يخفف وصف العاطفة الجياشة من الأصل الوحشى العنيف الغليظ وينتهج نهجاً رقيقاً نافذاً إلى أعماق نفوس شخصياته ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وحديث توماس عن الحب حديث مفعم بالمفاهيم البلاطية ، أو حديث يدور حول تحديد مفهوم الحب البلاطى . والحقيقة أن معالجة توماس لتأثير المشروب السحرى على قلب تريستان وايزولد ومارك معالجة جديرة بالاعجاب . فتوماس يرفض فكرة الحب بغير لقاء سابق ، ففى حين يتورط بعض المؤلفين فى جعل تريستان يحب ايزولد على غير لقاء سابق ، يشترط توماس هذا اللقاء ويتمسك به ، ثم يأتى المشروب السحرى فيقوى علاقة نشأت بالفعل . وإذا كان المشروب السحرى من شأنه أن يثير الحب ، وإذا كانت مقتضيات القصة تفرض أن

يظل مارك على حب ايزولد ، فإن توماس يبقى فى كأس المشروب السحرى شيئاً يصل إلى مارك ويشربه فيمتلىء قلبه بحب ايزولد إلى النهاية . إنك تحس أن توماس رجل تعلم وعرف المنطق واجتهد فى أن يربط الأسباب والمسببات .

جوتفريد فون شتراسبورج وتريستان وإيزولد

تأثر جوتفريد فون شتراسبورج بتوماس خاصة ، واتبع نصه اتباعاً وثيقاً . ولكنه كان يعرف المؤلفين الآخرين ونصوصهم ، وخاصة أيلهارت . فى الأبيات ١٣١ وما بعده يقول متحدثاً عن مصادره :

« أنا أعرف أن هناك كثيرين
قرأوا (وحكوا ؟) عن تريستان .
ولكن ما أقل
أولئك الذين أحسنوا القراءة (والحكاية ؟) .
فإذا كنت أسلك السبيل نفسه الآن
وأقول فيه كلمتى

. . . . .

فانى أتصرف على نحو آخر .
ولا ألومهم . فقد تكلموا
بنية كريمة خالصة
وأرادوا خيرى وخير الدنيا .
ولا ريب أنهم تصرفوا عن حسن نية :
وكل ما يفعله الإنسان عن حسن نية
هو أيضاً خير وعمل صالح .
أما ما قلته
من أنهم لم يحسنوا القراءة (والحكاية ؟)
فأمر واقع ، على نحو ما تحدثت .
لم يقص هؤلاء بالحق (= اعتماداً على مصدر)
مثلما فعل توماس البريطانى ،
الذى كان أديباً سيداً فى القصة
وقرأ فى الكتب البريطانية
حياة الأمراء جميعاً
وحكاها لنا وعرفنا بها .
ومثلما قال عن تريستان
الصواب وذكر الحقيقة (المصدر ؟) .
بدأت أنا أبحث بحثاً حاراً
فى كل أنواع الكتب
الرومانية واللاتينية
ورحت أجتهد وأكد
حتى أنشئ
هذا الأدب على صواب » .

جوتفريد يقرأ إذن مصادر مختلفة باللغات الرومانية (يعنى الفرنسية ؟) واللاتينية — ربما تواريخ الأمراء ، ويعتمد على توماس البريطانى الذى كان فى رأيه الوحيد الذى لزم الصواب والذى استمد القصة من مصادرها الحقيقية والذى أنشأ قصة جعلته سيداً فى ميدان الأدب . ولكن جوتفريد أصيل ، يتحدث عن الحب حديث من خبره وعرفه ، ويرتب الأحداث ترتيباً يدل على أنه تصورها على نحو متكامل وأنه اتخذ له فيها مذهباً .

والعنصر الرئيسى فى قصة تريسان وايزولد فى صياغة جوتفريد هو الحب الذى يرتبط به الكيان الفرسانى بمغامرات أخلاقية وغير أخلاقية . وقد شهدت هذه الفترة من العصر الوسيط اهتماماً كبيراً بالحب ، وأنشأت له وحوله الكثير من الشعر الغنائى ، وألفت له الكتب تبحث فى أسبابه وأحواله وقواعده . والبحث فى احتمال تأثير البيئة العربية الأسبانية على ظهور هذا الاتجاه فى أوروبا بحث هام خليق بأن يفرد له مقال خاص . المهم أنه فى عصر تأليف تريستان ظهر كتاب أندريه كابيلان (أو شابلان) أو على الأصح ظهرت كتبه الثلاثة فى الحب (باللاتينية) ، وبها جزء طريف عن قواعد الحب ، يلخصها فيما يلى :

١ — ليس الزواج مبرراً لعدم الحب .
٢ — من لا يعرف الغيرة لا يقدر على الحب .

٣ ـ لا يمكن أن يرتبط إنسان بحبين .
٤ ـ الحب دائم الزيادة أو النقصان .
٥ ـ ما ينال المحب من محبوبته ضد إرادتها لا لا طعم له .
٦ ـ لا يمكن أن يحب الرجل إلا إذا بلغ الرجولة الكاملة .
٧ ـ ينبغي أن يحزن الأحياء على حبيب مات لمدة عامين .
٨ ـ لا يحق أن يحرم إنسان من الحب بغير سبب كاف .
٩ ـ لا يمكن أن يحب إنسان إلا إذا جذبه إغراء الحب إلى ذلك .
١٠ ـ من عادة الحب تجنب دار البخل دائماً .
١١ ـ من غير المقبول أن يحب الإنسان من قد يخجل من الزواج بها .
١٢ ـ الحبيب الحق لا يميل إلى التمتع بحب واحدة سوى حبيبته .
١٣ ـ نادراً ما يدوم الحب بعد أن يكتشف .
١٤ ـ سهل المنال من الحب يصبح مقيتاً ، وصعب المنال من الحب يصير عزيزاً .
١٥ ـ كل حبيب يشحب عادة عندما يرى حبيبته
١٦ ـ قلب العاشق يرتجف عندما يرى حبيبته فجأة
١٧ ـ الحب الجديد يطرد القديم .
١٨ ـ حسن الخلق وحده يجعل الإنسان خليقاً بالحب .
١٩ ـ إذا خفت الحب فما أسرع ما ينتهي وما أندر ما يعود .
٢٠ ـ العاشق دائماً خجول .
٢١ ـ عاطفة المحب تزداد دائماً بالغيرة الصادقة .
٢٢ ـ اندفاع المحب وعاطفته يزدادان عند الشك في المحبوبة .
٢٣ ـ من أرقه التفكير في الحب قل طعامه وقل نومه .
٢٤ ـ كل فعل من المحبوب مرتبط بالتفكير في المحبوبة .
٢٥ ـ المحب الحق لا يستحسن إلا ما يعتقد أنه سيسر محبوبته .
٢٦ ـ الحب لا يمنع شيئاً عن الحب .
٢٧ ـ لا يمكن أن يمل المحبوب من وصال محبوبته .
٢٨ ـ أقل الظن يدفع العاشق إلى الشك في محبوبته
٢٩ ـ ما عرف الحب من أرقه الأثم .
٣٠ ـ العاشق الحق لا يفتأ يتأمل محبوبته .
٣١ ـ ليس هناك ما يمنع المرأة من حب رجلين ، ولا الرجل من حب امرأتين .

هذه القواعد تقربنا من مفهوم الحب عند جوتفريد : الحب عنده شيء قوى ، هائل يتملك الإنسان ويتسلط عليه ويجرده من إرادته . وما شراب الحب إلا رمز على هذه القوة الهائلة . وما أسعد جوتفريد عندما وجد عنصر « الشراب السحرى » ، فقد حسم به مشكلة العلاقة بين الحب والأخلاق ، لأن الشراب السحرى يجرد الإنسان من إرادته ، ومن تجرد من إرادته أصبح تأثيمه عبثاً أو ظلماً . فلا إثم إلا على من كان في وعيه وكان يتصرف عن عمد وإرادة . جوتفريد يجعل الشراب السحرى رمزاً ، ويدخل في مفهومه عن الحب عناصر من الصوفية ، كما بينت البحوث الحديثة . جوتفريد فون شتراسبورج يصور حبيبين تريستان وإزولد في سعيهما نحو الوحدة الصوفية أو الاتحاد الصوفى على صعيد الحب ونهايتهما نهاية الشهداء ، شهداء العشق ، لوقوف الدنيا منهما موقف العدو . ولهذا نجد جوتفريد في مقدمته يتجه بقصة الحب الصوفية هذه إلى أصحاب « القلوب الكريمة » وحدهم ، ولا يتجه بها إلى العامة ، الذين لا يطيقون الصوفية ولا يفهمون الربط بين الحب

والألم ، بين الحياة والموت فى كل واحد ، فى وحدة واحدة على طريقة أهل الصوفية .

وجوتفريد بحديثه هذا عن أصحاب القلوب الكريمة يقسم الواقع إلى قسمين ، قسم رفيع وقسم وضيع ويضع القسمين أحدهما ضد الآخر . والقسم الرفيع هو الذى ذاق الحب ، وخبره خبرة عميقة ، فبلغ الفضيلة وبلغ الشرف والرفعة (انظر القاعدة رقم ١٨ من قواعد كابيلان) . جوتفريد ينقل مفاهيم الصوفية من صعيد الدين إلى صعيد الحب ، ويستعمل مصطلحاتها . هدف العاشقين هنا اتحاد بدنى روحى على أرقى مستوى ، ولا شأن له بالمعروف فى الاتحاد الصوفى ، اللهم إلا إذا عنينا المنهج . فى مفهوم الاتحاد الصوفى « الغرامى » نقرأ هذه الأبيات :

هائم وهائمة

رجل ، امرأة — امرأة رجل ،

تريستان ايزولد — ايزولدتريستان .

نراه يبدأ فى البيت الأول بربط الهائم والهائمة بحرف العطف « و » ، ثم ينتقل إلى التوحيد بينهما فيرفع حرف العطف ، فكأنما تريستان وايزولد كائن واحد . والحب عند جوتفريد شىء يقصد لذاته ، تريستان يحب ايزولد وينالها لا لأنه برع فى المغامرات وأتى بالكثير من أعمال القوة ، وإنما ينالها لأنه جدير بالحب (انظر قواعد كابيلان) ، وايزولد تستجيب للحب وتقابله بحب ولا تفعل ذلك مقدمة ثمناً أو مكافأة ، بل لاحساسها بلقاء من يملأ قلبها . إنه حب فوق كل شىء ، حب لا حدود له . والحب هنا لا يسعى إلى الزواج ، وأنى له هذا ؟ (انظر القاعدة الكابيللانية الأولى) إنه حب لذاته ، فيه الحس وفيه الروح . وجوتفريد لا يجرد الحب من ناحيته الحسية ، بل يراها جانبه الظاهرى الذى لا بد منه لكمال الحب . وهكذا يخرج جوتفريد بمفهومه هذا عن المفهوم الاجتماعى . والمجتمع لا يعترف من الحب إلا بالزواج . وقد يعترف بالحب المجرد عن الحس . أما هذا الحب فلا بد له من مكان آخر غير المجتمع بصورته المعروفة . ومن هنا يأتى تقسيم المجتمع إلى قسمين .

وقد كان تقسيم المجتمع إلى قسمين ، واحد معنا وواحد علينا ، شائعاً فى ذلك العصر ، فمعاصر جوتفريد الشاعر فولفرم فون اشينباخ يقسم المجتمع إلى قسمين ولكن على أساس آخر هو : المقدرة الفرسانية . وفى قصة جوتفريد نشاط فرسانى ، على عادة العصر ، ولكنه لا يقسم المجتمع ، بل لا يواجه هذه المشكلة أبداً . هذا النشاط الفرسانى ثانوى ، يمهد للأحداث الرئيسية ، مثلا الصراع بين تريستان ومورولت : يمهد للقاء تريستان وايزولد لا أكثر من ذلك ، فلسنا نجد تريستان يتوسل ببراعته وتفوقه على مورولت ليصل إلى قلب ايزولد ، بل على العكس لا بد لتريستان أن يخفى أمر هذا الصراع لأن مورولت هو خال ايزولد الحسناء . ويؤكد جوتفريد على ثقافة تريستان ، ويصفه بأنه كان يجيد القراءة ويحسن العزف ويتقن الكلام بأنه كان رجلا يتميز بأدب الندماء . وكذلك ايزولد ، أروع ما يصفه بها جوتفريد هو « أنوثتها » هو طبيعتها الرقيقة . وأن ايزولد لتبقى امرأة فى كل حال ، امرأة بكل ما تتصف به المرأة من صفات مميزة . (قارن صورة المرأة فى النيبلرنجنليد مثلا) .

والفصل الخاص بكهف الحب ، يصور قمة الاتحاد الصوفى بين الحبيبين اللذين عجز المجتمع بقسمه الوضيع عن شمولهما . ليس كهف الحب عند جوتفريد ، كما كان عند سابقيه ، مكان هاربين طريدين ، بل هو رمز الاتحاد على أعلى مستوى له . الحبيبان عند جوتفريد لا يخرجان طريدين ، بل يسعيان إلى مكان خليق بحبهما . وجوتفريد يصور هذا المكان ، هذا الكهف ، كأنه الجنة ، ويضع فيه « سريراً من البللور » يرفع به مفهومه عن الحب إلى أعلى درجات النقاوة والصفاء .

ويظهر أن جوتفريد كان مقتنعاً من أن هذا اللون من الحب لا دوام له ، لأنه لا يستند على أساس من الواقع ، وأنه كان يريد أن يسير بقصته إلى المنقلب ، فيأسف على سوء ما حدث للمحبين ، ويتابع التراجيديا إلى انحطاط الحب من الرفعة إلى الضعة . وربما أراد جوتفريد بعد مشهد الانحطاط ، أن يصور انتصار مفهومه فى النهاية ، بلقاء المحبين الخالدين ، واتحادهما فى الموت إلى الأبد .

مخطوطات تريستان وإيزولد لجوتفريد

وصلتنا قصة تريستان وايزولد الشعرية لجوتفريد فون شتراسبورج فى مخطوطات أهمها ١١ مخطوطاً ، منها ستة مخطوطات من الرق :

م ــ مخطوط ميونيخ ويرجع إلى القرن الثالث عشر وهو محلى بالكثير من الصور ، ويرجع إلى القرن الثالث عشر ، ولكنه غير كامل .

ه ــ مخطوط هايدلبرج ويرجع إلى القرن الثالث عشر أيضاً .

ب ــ مخطوط بلانكنهايم ، وهو محفوظ الآن فى الأرشيف التاريخى لمدينة كولونيا ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو محلى بالصور .

ف ــ مخطوط فلورنسا ، بالمكتبة القومية هناك ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ن ــ مخطوط برلين ، وهو بمكتبة برلين ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ف ــ مخطوط فيينا بالمكتبة الملكية ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

أما المخطوطات الورقية الخمسة فهى ترجع غالباً إلى القرن الخامس عشر وهى خالية من الصور وبعضها يحمل عناوين لفصول قسم الناسخ القصة إليها . وهذه المخطوطات محفوظة فى مودينا ، وفى كولونيا وفى برلين وفى بروكسل وفى هامبورج (نسخة هامبورج هذه صنعت فى القرن الثامن عشر فى عام ١٧٢٢ نقلا عن نسخة خطية قديمة ، وهى تقسم القصة إلى ٢٦ فصلا لكل عنوان مفصل يلخص مضمونه) .

وهناك مجموعة كبيرة من بقايا المخطوطات أو من المخطوطات الجزئية استعملها العلماء فى تحقيق النص وفى الدراسات الفيلولوجية والأدبية المختلفة ، نكتفى بالإشارة إلى وجودها . أما الطبعات التى ظهرت للنص محققاً فنذكر منها طبعة ر. بيششتاين (لايبتسيج ١٨٦٩ وبعد ذلك) وطبعة مارولد (لايبتسج ١٩٠٦ وبعد ذلك) ثم الطبعة الهامة التى أخرجها ف . رانكه عام ١٩٣٠ والتى اعتمدنا عليها فى طبعة عام (١٩٦٥) .

وأول من أخرج نص تريستان وايزولد فى العصر الحديث (وكان أدب العصر الوسيط قد توارى تحت غبار الماضى والنسيان عدداً من القرون) هو كريستيان هاينريش موللر فى مجموعته المسماة « سلسلة الآداب الألمانية فى القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر » ، المجلد الثانى ، برلين عام ١٧٨٥ . ومنذ ذلك الحين كثرت الطبعات ، خاصة بعد أن أصبحت دراسات الآداب الألمانية فى العصر الوسيط علماً خاصاً على يد الأخوين جريم فى القرن التاسع عشر .

مكملو تريستان وإيزولد

علمنا أن جوتفريد لم يتم قصته ، وأنه تركها ناقصة على الأرجح لموته . وقد تناول اثنان من الأدباء القدماء قصة جوتفريد واستعانا بمؤلفات أخرى مشابهة لاكمالها . هذان هما أولريش فون تورهايم (بين ١٢٢٥ و ١٢٣٥) وهاينريش فون فرايبرج (حول عام ١٢٩٠) . ولا شك أن اهتمام جماعة من الأدباء (ربما بايعاز من الأمراء) باكمال هذا العمل الناقص دلالة على تقدير لقيمته ، وعلى استحسان القراء له . وقد أفدنا من هذا الاهتمام إفادة جوهرية تتلخص فى معرفة اسم صاحب

« تريستان وايزولد » لأنه كان من عادة الأدباء ألا يذكروا أسماءهم إلا فى آخر مؤلفاتهم (وربما ذكر بعض الأدباء اسمه فى مقدمة مؤلفه كما فعل هرتمن فون أوى فى « هاينريش المسكين ») ، وهكذا لم يرد اسم جوتفريد فى قصته . ولكن أولريش فون تورهايم وهاينريش فون فرايبرج ذكرا اسم جوتفريد فصحت نسبة العمل إليه . وقد اعتمد الأديبان المكملان على نص أيلهارت رغم اتهام جوتفريد له بعدم معرفة القصة على حقيقتها ، وكان الأحرى بهما أن يعتمدا على المصدر الذى رجع هو بصفة أساسية إليه وهو نص توماس . ولكن نص أيلهارت كان أقرب منالا وأكثر إغراء .

والملحق الذى أضافه أولريش فون تورهايم يتميز بالإيجاز الشديد ، وليست له قيمة أدبية كبيرة . ولأولريش فون تورهيم نشاط مشابه فى اكمال قصة فيللاهالم للشاعر الألمانى العظيم فولفرم فون اشينباخ . ويبدو أن العصر عرف اتجاهاً يميل إلى اكمال أعمال الكبار التى لم تتح لهم الفرصة لاكمالها .

تريستان وإيزولد بعد جوتفريد

لقيت مادة تريستان وايزولد رواجاً شديداً فى البلاد المختلفة . فى النرويج مثلا ظهرت عام ١٢٢٦ قصة تريسترام النرويجى ، وفى إيطاليا ظهرت فى مطلع القرن الرابع قصة حول تريستان ، وفى القرن الرابع عشر نشأت قصة تريستان التشيكية . وفى الوقت نفسه تقريباً ظهرت قصة السيد تريستراند فى إنجلترا . أما فى فرنسا فقد ظهرت — علاوة على ما سبق أن أشرنا إليه — قصة نثرية عن تريستان فى النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقد حظيت القصة بصيغها المختلفة باهتمام العلماء فى فرنسا ، ولا بد أن نشير هنا إلى « رواية تريستان وايزو » التى صاغها جوزيف بدييه من جديد منذ أكثر من ربع قرن ، والتى نقلنا تقسيمها فى موضع آخر من هذه الدراسة . والطريف فى هذه الرواية أن بدييه استخدم فيها النصوص الأساسية المعروفة كلها تقريباً ، استخدم توماس وبيرول وأيلهارت وجوتفريد ، واتبع منهجاً وسطاً بين الترجمة والتأليف ، واصطنع أسلوباً شبيهاً بأسلوب العصر الوسيط .

أما الألمان فقد ألفوا قصة أخرى (قصيرة) عن تريستان فى نهاية القرن الثالث عشر أو فى مطلع القرن الرابع عشر فى براج ، وألفوا فى الوقت نفسه أو قبله بقليل فى منطقة الالزاس عن الموضوع نفسه بعنوان « تريستان راهباً » وهى قصة مغامرات طريفة . ولما دخلت المطبعة ظهرت فى ألمانيا رواية نثرية عن تريستان وايزولده طبعت فى أواخر القرن الخامس عشر أكثر من مرة ، وكانت محلاة بالصور ، واعتمد النص على قصة أيلهارت خاصة وقد ترجمت هذه الرواية الألمانية الشعبية إلى اللغة الدنمركية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت الدنمرك تعرف رواية دنمركية باسم « تريستان وانديانا » منذ نهاية القرن الثامن عشر لا يعرف مصدرها ، وإن كان المعتقد أن يكون رواية ألمانية ضاعت . وأوحت الرواية الألمانية المطبوعة التى تحدثنا عنها ، إلى الشاعر العامل هانز زاكس بخمس أغان وبتراجيديا (عام ١٥٥١ و ١٥٥٣) . وفى عصر الرومانتيكية ظهر اهتمام مجدد بتريستان وايزولد فألف كارل ايمرمن قصة شعرية (ملحمة) لم يتمها (١٨٤١)

على أن الفضل يرجع إلى ريشارد فاجنر ، الشاعر الموسيقى ، فى صياغة مادة تريستان وايزولد الصياغة النهائية فى الدراما الموسيقية « تريستان وايزولده » . كتب فاجنر النص فى عام ١٨٥٧ ووضع موسيقاه فى عام ١٨٥٩ ، ومثلت الأوبرا لأول مرة فى ميونيخ فى عام ١٨٦٥ . وكان فاجنر فى هذا الوقت متأثراً بحب ماتيلده فنزندونك وما لقيه فيه من خبرة عميقة خلاقة . وقد قرأ فاجنر تريستان وايزولد فى ترجمة ﻫ . كورتس (عام ١٨٤٤) وترجمة زيمروك (١٨٥٥) وتأثر « بشوبنهاور » وربما « بنوفاليس » ، فتم له من هذه

المؤثرات جميعاً خلق العنصر الجوهرى وهو الحب إلى الموت وفى الموت ، هو الحنين إلى الحب والوصال فى الموت ، هو الرمز الخالد لخلاص الإنسانية فى وحدة الكل وانسجامه .

أمثلة من قصة تريستان وأيزولد

أعدت الملكة ايزولد الأم مشروب الحب السحرى وأعطته للوصيفة برانجين وأوصتها الوصية التالية (البيت ١١٤٤٩ وما بعده) :

أخذت السيدة الحكيمة (الملكة ايزولد الأم) الشراب
وتكلمت مع برانجين بصوت خفيض ،
قالت لها : « أى برانجين ، يا عزيزتى وبنت أختى
أرجو ألا يكون كلامى ثقيلا عليك ،
فقد قررت أن تذهبى مع ابنتى فى سفرها .
لذلك فافتحى لى ذهنك
وانتبهى إلى كل ما أقول لك :
خذى هذا الكأس بما فيه من شراب
واجعليه فى حفظك وصونك ،
وانتبهى إليه جداً أكثر من كل ما عداه .
حذار أن يأتى كائن من كان على الأرض
ويمد يده إليه !
احفظيه بكل جد وجهد
حتى لا ينعم به أى إنسان .
واجتهدى أشد الاجتهاد
عندما تقترب ايزولد ومارك
من وصال الحب
أن تقدمى لهما هذا الشراب على أنه نبيذ
ليشرباه معاً كله .
. . . .
إنه شراب الحب والهيام :
فلا تنسى هذا قط » .

وسارت السفينة بايزولد وتريستان ومن معهما إلى أرض الملك مارك . وكانت ايزولد حزينة وكان تريستان يواسيها (١١٥٤٠ وما بعده) :

وأعطيت السيدة (ايزولد) فى الرحلة
باشارة من تريستان
حجرة بالسفينة
خفية متوارية
لتقيم فيها .
هناك كانت الملكة
وفتياتها معها
ولا يدخل إليهن رجل أبداً
إلا تريستان من وقت لآخر :
فكان يدخل أحياناً
ويواسى الملكة
عندما كانت تجلس باكية .
كانت تبكى وتنتحب
لأنها تركت هكذا بلدها
الذى تعرف أهله
وتركت أصدقاءها جميعاً
لترحل مع قوم لا تعرفهم
. . . .
وهكذا كان تريستان يواسيها
على أحلى ما يستطيع
فى كل ساعة .
عندما كان الحزن يحل عليها .
كان يأخذها بين ذراعيه
بكل حلاوة ورفق
بطريقة لا تختلف عن
الزوج مع زوجه .
كان الرجل المخلص يجتهد
فى أن يكون للحسناء

تخفيفاً عما بها من هم .
فلما تكرر
تطويقه اياها بذراعيه ،
فكرت ايزولد الجميلة
فى موت خالها
وقالت له محتدة :
« كفاك يا ريس » (ريس المركب !) ، ابتعد ،
وابعد ذراعيك عنى !.
أنت رجل جد شرير ،
فلماذا تلمسنى ؟
فيقول : « آه ، أيتها الجميلة ، هل أسىء التصرف ؟
فترد : « نعم ، لأننى أكرهك » .

ويتقرب تريستان إلى ايزولد ويحدث بينهما كلام وعتاب . وفى الطريق يقتربان من الشاطئ طلباً للراحة ، ويذهب من بالسفينة كل فى ناحية ، ويبقى تريستان مع ايزولد ، ويعطشان ، ويشربان على غير علم من الاناء الذى به الشراب السحرى ، فإذا بالحب يشتعل فى قلبيهما . (١١٧٤٥ وما بعده) :

فلما أحس تريستان بالحب
فكر على الفور
فى الاخلاص والشرف
وأراد أن يحسم الأمر حسما .
ولكنه ما لبث أن ثار على نفسه وقال :
« دع يا تريستان الأمور تجرى مجراها
ولا تهتم » .
كان قلبه يريد أمراً
وكان هو يصارع إرادته ،
وكان يشتهى ضد رغبته .
كان يريد هذا ، ثم يريد ذاك .
وفى الطريق حاول الرجل الضائع
مراراً وتكراراً
محاولات كثيرة ، واجتهد فى الاستقامة طويلا .
وكان أمره مع الاخلاص
يضطرب بين حالين متلاصقتين قاسيتين :
كان كلما رآها بعينيه
بدأ الحب الجميل
يؤجج قلبه ويوقد حسه ،
ثم يفكر فى الشرف ، فيصرفه فكره عن الحب ،
ثم ما يلبث الحب أن يعاوده ،
والحب صاحب الأمر والنهى ،
فيتحتم عليه الامتثال .
اختلجت فى نفسه : الرغبة
والاخلاص والشرف فى وقت واحد .
ولكن اختلاج الحب كان أقوى
وكان يحدث به ما هو أشد من الألم ،
وكان يؤرقه
أكثر مما يؤرقه الاخلاص والشرف مجتمعين .
وكان قلبه ينظر إلى الاثنين ويضحك
وتشيح عيناه عنهما .
كان إذا لم يرها
يحس بالقلق أشد القلق .
وكثيراً ما كان يرى نفسه ،
مثل الأسير
الذى يريد الهرب
ثم يعود إلى التفكير ويقول فى نفسه :
« قف فى وجه هذا ! ورد ذاك !
اصرف هذه الرغبة !
ابعد هذا الحب ! وفكر فى شىء آخر »
ولكنه كان إذا تناول قلبه وحسه
وهو فى الطريق
وحاول أن يغيرهما
لم يجد فيهما
إلا ايزولد والحب » .